العرب وذهنية الغرب

الشعوب السامية في كتاب دوتي

يذهب بعض الغربيين ـ ومنهم دوتي ـ الى أن في طبيعة الشعوب الساميّة ميلا الى الغلوّ في التعصب الديني ، وقوة غير محدودة في الحقد والبغضاء . وأن السامي قوي دائما في بغضه وحقده ، مهما كان ضعيفا في غير ذلك

ولا ينكر أن القوى النفسية ليست متساوية في جميع السلالات البشرية،وان هناك تفاوتاً فيها قد يكون علة ظهور معظم الاديان التي دان بها الانسان في تاريخه القديم ويدين بها اليوم في شعوب ساميّة وعلى أيدي أفراد من الساميين . غير أن ذلك لا يفيد أنهم ذوو قوى غير محدودة في الحقد والبغضاء ، لان بلوغ هاتين العاطفتين في الانسان الى الحد الذي تدل عليه هذه العبارة هو منافٍ للكرم وروح الصفح والحلم والرأفة ، تلك الصفات التي تفوّقت فيها الشعوب الساميّة ولا سيما العرب على سائر السلالات كما يشهد التاريخ . ثم ان الغلوّ في التعصب الديني ليس خاصا بسلالة معينة من البشر ، والتاريخ مفعم بالادلة على أن الناس في مختلف البلدان وعلى اختلاف الاصول هم على حد سواء في ذلك ، ولعل تاريخ أوروبا ـ المسربل بدم الملايين من ضحايا التعصب الديني ـ لا يملك أن يفخر على تاريخ أي شعب من الشعوب السامية في هذا الباب [1]

ومن الامور المدهشة أن يعزو رجل كدوتي ـ وهو لا يجهل التاريخ ـ ما عاناه من الاضطهاد في (حائل) و (القصيم) تارة الى طبيعة الدين الاسلامي وتعاليمه ، وتارة الى طبيعة العرب من حيث هم ساميّون ، ويفوته ان ما أصابه ـ وأعظمُه صفحةٌ أو كلمة جامحة ـ لا يقاس بما فعله بعض ملوك بلاده مع الذين

(١) الشعب السامي الذي اشتهر في التاريخ بالقسوة وغلظ الاكباد هو الشعب الاشوري ومع ذلك فالاوربيون يلقبون الاشوريين برومان الشرق

لا يدينون بدين العرش ، وحسبه ان قام له في كل مكان نصير يحميه ويردّ عنه غائلة الجمهور ، أما في بلاده فلم يرو التاريخ أن الجمهور كان يتقزز من أعمال القتل والتعذيب . وليت شعري ما رأيه بالعوامل التي حملت الملكة مارى — وهي امرأة — على حرق المئات من البروتستانت في ساحات لندن العمومية وهم أحياء ؟ وما رأيه بأعمال فيليب الثاني ملك اسبانيا وزوج هذه الملكة وتفنن عماله من رجال الدين بأساليب القتل والتعذيب ؟ وما ذا عساه يقول بمذابح الهكونوت في فرنسا ، وحروب الثلاثين سنة في أوروبا الوسطى ، واضطهادات روسيا ، وما الى ذلك من الفظائع والحروب ؟ وهل كان لسموّ الطبيعة الآرية الذي يدعيه للغربيين أن يمنع الانسان في الغرب ما حملته عليه غرائزه السامية (كما يزعم دوتى) في بلاد الشرق ؟ وهل نفع ما في الدين المسيحي من حث على الرحمة ، ونهى عن القتل والظلم ، في منع الناس عما سوّغه لهم الجهل ؟

يقول دوتى (صفحة ١١٠ ج ١٠) : « ان خشونة الرعاة لا تفارق طبيعة الساميين ، فنفوسهم تتطلع أبداً وقبل كل شيء الى حاجة الجسوم ، الى الغذاء ، ثم الى اشباع ميولهم الطبيعية الى التكاثر . ويستشهد على صحة الجزء الثاني من قوله بما روي في التوراة عن نقل يوسف لحديث اخوته المتعلق بالنساء الى أبيه ، وبما نسب الى موسى في شريعته من ذكر جريمة الاضطجاع مع البهائم ، وبما كان عليه الكنعانيون من الفساد الخلقي حسب رواية التوراة . وفساد هذا الزعم ظاهر ، اذ أن الميل الى التكاثر هو من طبيعة الانسانية ، على الاطلاق ، بل من طبيعة الاحياء باجمعها : من أدق الجراثيم الى أضخم الضواري وأكلة الاعشاب. أما الفساد فان ما تحمله الينا أسواقه الغربية من الافانين والالوان يشهد بأن الغربيين قد حازوا قصب السبق في مضاميره وحق لهم أن يستأثروا بلقب التخصص ، اذا كان ثمة اختصاص في هذه الامور

ويزعم في بعض كتابه أن البدو لا يكثرتون للحنث باليمين ، ولا يعنون بالصدق فيما يقسمون لاجله ، بدليل اسرافهم في التلفظ بعبارات القسم . وقوله صحيح من حيث الاسراف ، على أن مايجرى على السنتهم في احاديثهم العادية من عبارات القسم هو من قبيل العادة وليس من قبيل القسم المعقود . وبوسعي أن أورد كثيراً من الحكايات التي تدل على حرصهم على القسم ومحافظتهم على مايعدُ به السنتهم ولا سيما في المواقف الجدية ، مثل حوادث الدم ، وكثيراً ماتمّ القاتل عن نفسه اذا كلف باليمين كما جرى لاحد السرديين في القصة الآتية :

فقدَ عرب السرحان [1] رجلاً منهم فاتهموا السرديين بقتله . واتفق شيوخ القبيلتين على تحليف رجال السرديين اليمين في جمع من العشيرتين . ولما حل الميعاد المضروب أقسم السرديون جميعاً ، الا واحداً تخلف في باديه الامر وتغيب ، فاستدعاه متعب الكنج شيخ السرديين وطلب اليه أن يحلف ، ولما اضطره الى ذلك وقف مشيراً الى السماء باليد الواحدة وممسكاً بالاخرى عمود الخيمة وقال مقسما « وحق هذا العود [2] ، والرب المعبود ، اني ضربت وربي قتل » ويقال ان هذا السردي عجز عن دفع الدية وان السراحين قتلوه فيما بعد بدم صاحبهم ، وهكذا ذهبت حياته ضحية احترامه للقسم وصدق لسانه فيه

ويقول دوتي في مكانٍ آخر من كتابه : ان البدو ليس في طبيعتهم احتقار الموت في سبيل الشرف لان نفسية الاقوام الساميّة لا تدرك مثل هذا الشعور الشريف . ولكني رأيت بعيني عرباً يموتون قياماً بعهد ، أو وفاء لوعد ، أو اخلاصاً لامير أو عقيدةٍ أو مذهب . وقُدّر لي مرة أن أكونَ في مركز من

---

(١) عرب السرحان من عشائر بادية الشام ومنازلهم في وادي السرحان المسمى باسمهم ولكنهم هجروها بعد تغلب الرولة . وهم ينزلون اليوم الهزيم والبيضاء وما اليها من المياه المجاورة الازرق وجبل الدروز . والسردية من عربان حوران . والعشيرتان ترجعان الى أصل واحد بالنسب (٢) يعني عمود الخيمة

شأنه الاشراف على تنفيذ الاعدام، فجيء بأحد عشر بدوياً أصابهم هذا الحكم فأعدموا جميعاً رمياً بالرصاص دون أن يهتفوا - الا واحد أو اثنان من احداثهم - بكلمة استعطاف أو « دخالة » علما منهم انهم في ايدي اعداء يشمتون بهم اذا هم ابدوا الضعف . ولقد دهش الحاضرون من صمتهم العميق واحتقارهم للموت . ومَن من الذين خبروا البدو من رجال الجندية لم يشهد حوادث استهانتهم بالموت والاقدام عليه لاسباب لا تخرج عن حدود الانتقام للشرف أو الوفاء بالعهد

ولقد امتدح دوتي في العرب اموراً كثيرة وخص البدو بثنائه وعطفه ، على انه افرط في الجري وراء الوهم وشحن كتابه باقوال لاتدل على تدقيق في تعرف الاشياء ، ولعل النبذة التالية تصلح ختاماً لهذا البحث لما فيها من الدليل الظاهر على جهله بالشئون التي تعرَّض لنقدها

عزا دوتي ماشاهده من بساطة الدفن والمدافن في (حائل) الى ضن الناس بالانفاق على تكريم موتاهم على نحو مايجري في بلاده ، وذلك لما رُكب في طباع الساميين من الانانية وحب الاقتصار فيما ينفقون على أنفسهم وملاذهم . وهو يحسب لهم يعتبرون واحدهم انتهى من الدنيا وفرغوا هم منه في اللحظة التي يفارق فيها الحياة ، فهم لذلك يتحامون الخسارة في الانفاق على جنازته وقبره . ولاحاجة بنا الى القول ان المؤلف يجهل العوامل الحقيقية التي تدعو اهل نجد لما حسبه اجحافاً بحق الميت على الاحياء ، وانها لا تخرج عن كونها دينية صرفه ، ولكن ما العمل وما ذا نقول والغرب يحاربنا بعلمه وجهله في وقت واحد ، وماذا عسانا فبدي غير التأسف لماجنته هذه الذهنية العوجاء في الماضي ، والتفكير فيما ستجره علينا وعلى الغرب جميعاً من المحن في مستقبل الايام

القاهرة فؤاد سليم